ضحية التهمة

بقلم الاستاذ حسن الجواهري

كان الحاج فالح يحب ابنته الوحيدة حباً عميقاً وقد اسماها سعدى تريد لها مستقبلا زاهراً وحياة رغيدة لايشوبها كدر ولا يخالطها هم والحاج فالح هذا رجل مزارع يقيم في إحدى القرى المنتشرة على ضفاف دجلة له هيبته ووقاره في نفوس عشيرته ومجاوريه لما يتحلى به من مزايا حسنة وطباع جميلة واخلاق فاضلة مع كرم وسخاء وشجاعة ومروءة . وشبت ابنته كما تشب الفتيات المنعمات لها جمالها الرائع ونضارتها الفاتنة وشبابها الغض .

ولكن في نطاق محدود من الحرية والانطلاق فليس لها ان تبارح البيت بعيداً او تبدى مفاتنها للانظار او تخالط وتعاشر الشبان صوناً لعفافها وطهارة لنفسها وكان قد تهافت على خطبتها شبان كثيرون فلم يفوزوا بها وارتدوا على اعقابهم خاسرين الا ابن خالتها (جسام) ذلك الشاب الأنيق ذو البشرة السمراء والملامح الجذابة والشجاعة والاقدام النادرين فانه قد وقع في قلبها وقلوب ابيها واخوتها موقعاً جميلا جعله محسوداً بين شبان القرية الذين خابت ظنونهم واصبحوا اعداء الداء يضمرون الحقد والبغضاء لتلك التي رفضتهم ولم تقبل بهم ازواجاً لها وراحوا يتربصون بها الدوائر ليوقعوها في الهوة التي تقضي على شبابها النضر وجمالها الرائع وما اسهل وقوع الفتاة الريفية في الهوة إذ انها تتعرض للتهم والشبهات اكثر مما تتعرض لها فتاة المدينة فتورد مواردها الهلاك والموت وهي بريئة من كل ذنب وطاهرة من كل دنس . وراحت الأيام تتعاقب وهي تهيئ اسباب الزواج وتمهد طريق الوصال لذينك الحبيبين القادمين على بناء بيت سعادتهما وهنائهما بعواطفهما المتبادلة الرقيقة وشعورهما الدقيق الحساس حتى اصبحت ليلة العرس على الأبواب . وشاءت المقادير الصارمة ان تنهي حياة جسام قبل ليلة الزواج بليال ثلاث فقد اصيب بمرض حاد قضى على حياته غير هياب ولا وجل ولسانه يلهج بتلك الغادة الهيفاء التي افلتت من يديه كما يفلت الحبل من يد الصياد على كره منه ومنها وللمقادير احكامها القاسية ، فضجت القرية لذلك النبأ المشؤوم وفزعت برمتها لتشييع جنازة الشاب العريس وبعد قليل من الزمن حملت الجنازة على الأعناق والرؤوس وزين النعش باغصان الأشجار الطرية واوقدت الشموع مغروسة في معجون الحناء ومحمولة في اطباق مفروشة باوراق الليمون الندية اشارة الى ان الفقيد شاب عريس يستدر فقده الدموع ويثير مصرعه الاشجان وراحت جموع المشيعين الحاشدة تسير خلف النعش كما تسير الى الحرب مطلقة من افواه البنادق الرصاص معلنة بذلك حدادها وجزعها وتلك هي عادة القرويين عندما يفقدون عزيزاً لهم وبعد اداء مراسيم الدفن وورى الفقيد التراب ووضعت على قبره كومة من الرمال عليها حجر معلم للدلالة على من يرقد فيه . وعلى اثر هذا الحادث المروع اخذت الدموع تنهال غزيرة من عيون الخطيبة المفجوعة سعدى والهموم والأحزان تتزاحم وتتراكم في صدرها وحنايا ضلوعها وما فتأت تزور قبر الحبيب المفقود وتبلل قبره بدموعها الحارة الغزيرة ثم تعود ادراجها الى البيت كلما سنحت لها الفرص وواتتها الظروف في غفلة عن العيون وخلوة من الرقباء وكان طبيعياً ان تتجه اليها انظار الشبان ثانية فتهافتوا على خطبتها وقد ظنوا بأنها اصبحت الين من ذي قبل واطوع لمن يقدم اليها قلبه وماله بعد فراق حبيبها الراحل ولكنهم لم يفوزوا منها بطائل وقد اصرت على رفضهم جميعاً مفضلة ان تبقى محتفظة بحب (جسام) الى النهاية الامر الذي ترك في قلوبهم جروحاً لا تندمل واواراً لا يخبو الا بهلاكها والوقيعة بها وراحت الأيام تمر متعاقبة والفتاة تختلس من اوقات فراغها ما يمكنها من زيارة قبر حبيبها وارواءه بدموعها المحبوسة في عينيها القريحتين فكان سلوكها هذا يثير الشك والريبة في نفوس اولئك النفر الذين اصبحوا الد اعدائها فجعلوا ينقلون اخبار خروجها من بيتها الى جهات غير معلومة ساعة تجد لها فرصة تمكنها من الخروج وكان ابوها واخوتها الثلاثة الاشداء لا يصدقون بادئ ذي بدء بما يسمعون لعلمهم بما يضطرم في حنايا صدور القوم من الحقد والعداء ولكنهم لما كثر اللغط واشتد الغمز واللمز اخذوا يراقبون سلوك الفتاة مراقبة جدية شديدة وقد تناوبوا على ذلك بالنظر لكثرة اعمالهم وتراكم مسئولياتهم في امور معايشهم وشؤون حياتهم ، وفي مساء يوم من الأيام خرجت كعادتها لزيارة القبر

قصة